العرب
الإثنين 2019/12/23
السنة 42 العدد 11567

الكناوة فن مغربي من عمق أفريقيا المحفوف بالكثير من الأسرار

موسيقى وصلت إلى العالمية مع جيمي هاندريكس والمعلم باكو

فن مغربي من عمق أفريقيا

مخلص الصغير
كاتب مغربي

أدرجت منظمة اليونسكو موسيقى كناوة ضمن قائمة التراث اللامادي للإنسانية. فقد قامت اللجنة الدولية الحكومية لصون التراث الثقافي غير المادي، خلال اجتماعها، الأسبوع الماضي، في العاصمة الكولومبية بوغوتا، باعتماد موسيقى كناوة المغربية تراثا إنسانيا عالميا، لكونه تراثا موسيقيا مغربيا بعمق أفريقي وأبعاد فنية وروحية، يكشف عن الجذور الأفريقية لشعرية الغناء في المغرب.

وافقت منظمة اليونسكو على إدراج موسيقى كناوة ضمن لائحة التراث اللامادي للإنسانية. ورحبت المنظمة الدولية بالملف المغربي، الذي أعده خبراء قطاع الثقافة في الحكومة المغربية.

وأوضح بلاغ لوزارة الثقافة والشباب والرياضة أن الملف المغربي كان قد "أبرز الخصائص التاريخية والفنية والاجتماعية المميزة لهذا الفن. كما أبرز الجهود المبذولة للتعريف به والمحافظة عليه وتثمينه وضمان نقله إلى الأجيال الصاعدة". وذلك انسجاما مع أهداف الاتفاقية الدولية لصون التراث اللامادي كما صادق عليها المغرب، وكذلك الاتفاقية الدولية المتعلقة بحماية أشكال التنوع الثقافي.

كما تظل هذه الموسيقى تجمع ما بين نداء الحرية الذي حفز الأفارقة على الرقص والغناء والجهر بالكرامة، وما بين العمق الصوفي والروحاني الذي يضمن للأعمال الفنية الموسيقية إحساسها الأصيل وسموها المحلق.

عالمية كناوة

إذا كانت موسيقى كناوة قد حازت اعترافا دوليا من قبل منظمة اليونسكو، بعد أن وضعتها ضمن التراث الإنساني اللامادي، فإن هذه الموسيقى قد بلغت العالمية منذ نصف قرن تقريبا.

> المدونة الكناوية لا تزال المرجعية الكبرى لميثولوجيا أفريقية مفقودة وهي مصدر هام جدا لدراسة الثقافة الأفريقية

لقد أبهرت إيقاعات كناوة كبار الحركات والموجات الموسيقية العالمية في الستينات والسبعينات، مع كات ستيفنز وراندي ويستون وجيمي هندريكس وبيتر غابرييل والمكسيكي كارلوس سانتانا، وكذلك مجموعة ليد زيبلينغ بقيادة روبرت بلانت ومجموعة بينك فلويد وسواهما من مجموعات الغناء الثوري والاحتجاجي، بما في ذلك ثورة تلك المجموعات على أنماط الإيقاعات وأشكال الغناء السابقة.

كما لا يخفى تأثر مجموعة مغربية شهيرة هي "ناس الغيوان" بموسيقى كناوة، والتي تبقى رافدا من روافد المدونة الموسيقية الغيوانية، بفضل ما قدمه عبدالرحمن قيروش، المعروف بـ"المعلم باكو" منذ التحاقه بالمجموعة سنة 1974، قادما من مدينة مراكش، حاملا معه آلة السنتير، ونغمة روحية وطقوسية عميقة انضافت إلى باقي روافد "أهل الحال"، من قبيل المرجعية الملحونية، نسبة إلى "فن الملحون"، و"فن العطية" وإيقاعات عبيدات الرمى والحضرة وعيساوة غيرها.

ويمكن أن نشير هنا إلى أعمال الغيوان الكناوية، وفي مقدمتها "البطانة". وليس غريبا أن يلقي المعلم باكو كلماتها الافتتاحية، قبل أداء الأغنية، إضافة إلى أغنيات "غير خذوني"، "احنا ولاد العالم"، و"ضايعين"، و"اش جرى ليك أنادي أنا" التي يستهلها المعلم باكو أيضا بتقديم كلماتها، بينما اختار عمر السيد الطبل الكناوي لضبط إيقاع الأغنية ذات النغمة الكناوية الصريحة. والأمر نفسه مع أغنية "الصدمة" التي أبهر بها المعلم باكو جمهور العالم في الكثير من جولات المجموعة في أوروبا.

وكان الأنثروبولوجي جورج لابساد في حديثه عن معلمي كناوة الصويريين قد أشار سنة 1975 إلى توقف المعلم باكو عن ممارسة "تاغناويت" أي فن كناوة، بعد التحاقه بمجموعة ناس الغيوان، التي جددت الموسيقى المغربية على حد قوله في ذلك الوقت.

قبل ظهور مجموعة ناس الغيوان، كان المعلم باكو كناويا صرفا، مأخوذا بأنغام ورقصات الأفارقة المتطلعين نحو الحرية، ومتأثرا بالحركات التحررية في أوروبا، والفرق المسرحية والغنائية الثورية. فكان متحررا كبيرا، كما يشهد معاصروه في فترة شبابه بمدينة الصويرة. حينها، وفي منتصف الستينات، سوف يتعرف إلى الفرقة المسرحية ليفينغ تياتر، ليلتحق بها عازفا على السنتير. فكان يؤدي ما يشبه دور "الجوقة المسرحية" في هذه الفرقة. في تلك الفترة، سوف يرتبط عبدالرحمن بعضوة من تلك الفرقة المسرحية، واسمها كريستين، وكانت هي التي أطلقت عليه اسم باكو.

بعد زواجهما، انتقلا إلى إنكلترا للعيش هنالك، غير أن باكو سرعان ما شده الحنين إلى طقوس كناوة وعوالم موسيقاها، فعاد مع زوجته إلى المغرب، وإلى مدينته الصويرة التي كانت قبلة لطوائف "الهيبي" المتحررين القادمين من دول أوروبا وأميركا. وفي أواخر الستينات، وخلال إحدى السهرات الموسيقية التي كانت تجمع هواة وفرق الموسيقى العالمية في الصويرة، سوف يتقدم الفنان العالمي جيمي هندريكس إلى باكو، في إحدى الجلسات الموسيقية، وسيجلس إلى جانب باكو، ليطلب منه العزف على السنتير دون أن يرافقه الإيقاع، بعدما بهرته هذه الآلة الموسيقية الاستثنائية.

ثم أخذ قيثارته وصار يعزف برفقة المعلم باكو. ومن يومها، صار جيمي هاندريكس من أصدقاء المعلم باكو المولعين بموسيقاه الروحية والثورية. وظل جيمي هاندريكس يتردد على الحلقات الصوفية والكناوية للمعلم باكو، حين كان يقود فرقة "باند أوف جيبسيز". ولعل هذا الفنان الأميركي ذا الأصول الأفرقية كان يرى في المعلم باكو وآلته "السنتير" وموسيقاه "كناوة" أصوله الروحية وجذوره الأفريقية.

الجذور والمستقبل

تُعزى تسمية كناوة إلى بلاد "غانا" في قلب أفريقيا، حسب الكثير من المؤرخين. ويستحضر الباحثون المعاصرون المهتمون بتراث كناوة ما ورد في "كتاب الجغرافيا" للمؤرخ الأندلسي محمد بن أبي بكر الزهري، من أعلام القرنين الخامس والسادس الهجريين. وقد أورد الزهري أن الرقيق كان يجلب من بلاد كناوة إلى المغرب وباقي البلدان العربية وبلاد الأندلس.

وعلى نهجه سار المؤرخ والرحالة ياقوت الحموي في "معجم البلدان"، حيث يذكر أن "كناوة اسم قبيلة من البربر في أرض الغرب ضاربة في بلاد السودان متصلة بأرض غانا والأرض تنسب إليهم". أما المستشرق رينهارت دوزي، فيورد في "تكملة المعاجم العربية" أن كلمة كناوة هي "اسم علم (غينيا)". وهي "صناجات يستعملها الزنوج، وهي قطع صغيرة من الحديد مجوفة بشكل أسطواني تربط في الأصابع وتقرع الواحدة بأخرى". وهي الصناجات التي يضرب عليها أعضاء فرق كناوة ويضبطون بها إيقاعاتهم. وتسمى "القراقب" عند أهل المغرب. ونسبة إلى غينيا، لا تزال عائلة تحمل اسم غينيا من ضمن أكبر عائلات كناوة في المغرب، برز من أعضائها اسم المعلم محمود غينيا والمعلم مختار غينيا.

> اعتماد موسيقى «كناوة» تراثا إنسانيا عالميا يحافظ على ذاكرة هذا اللون الفني المغربي وعلى مرجعياته الأفريقية

يأتي اعتماد موسيقى "كناوة" تراثا إنسانيا عالميا من قبل اليونسكو ليضاف إلى سلسلة المبادرات التي تسعى إلى الحفاظ على ذاكرة هذا اللون الفني المغربي وعلى مرجعياته الغنائية الأفريقية. تنضاف إلى ذلك مبادرات منتظمة على غرار مهرجان الصويرة الذي ينعقد تحت مسمى "مهرجان كناوة وموسيقى العالم"، ويرأسه المستشار الملكي المغربي أندري أزولاي. هذا الأخير الذي اعتبر مبادرة اليونسكو اليوم بمثابة "تكريس رائع لكناوة المغرب، الذي أضحت موسيقاه وتاريخه وعاداته مصنفة الآن ضمن قائمة التراث غير المادي لليونسكو". بينما لا يزال فنانون كبار حريصين على استمرار هذا الفن "الكناوي"، بفضل اشتغالهم واجتهادهم، وفي مقدمتهم عبدالكبير مرشان، عبدالسلام عليكان، وباقبو وحميد القصري وآخرون.

لكن أن هذا الفن لا يزال في حاجة إلى عناية أكثر جدية وأكثر علمية، تبدأ بتسجيل مدونته الموسيقية، و"ديوان كناوة" من حيث الكلمات والقصائد الآيلة للنسيان، إضافة إلى الرقصات التي تؤديها الفرق والمجموعات الكناوية، مع وضع أنطولوجيا خاصة بهذه المجموعات وأعضائها، فضلا عن إحصاء الآلات المستعملة وتصنيفها... والحال أن المدونة الكناوية لا تزال المرجعية الكبرى لميثولوجيا أفريقية مفقودة، لعلها تظل المصدر الوحيد لأي محاولة من أجل دراسة الثقافة الأفريقية، وهي الثقافة التي لا تزال محفوفة بالكثير من الأسرار الغميسة والأفكار النفيسة.

بؤس اللغة العربية في تونس

حسونة المصباحي
كاتب تونسي

في نهاية السنة الحالية، احتفل في تونس باليوم العالمي للغة العربية بشكل محدود ومُحتشم للغاية. والحدث الوحيد الذي اهتمت به وسائل الإعلام هو تكريم الدكتور إبراهيم بن مراد الذي بدأ قصاصا بارعا، ثم خيّر في النهاية أن يوجه اهتماماته إلى بحوث لغوية ظلت منحصرة إلى حد هذه الساعة في دوائر أكاديمية ضيقة بحيث لم يستفد منها أحباء لغة الضاد على نطاق واسع.

وقد يعود عدم الاهتمام باليوم العالمي للغة العربية في تونس هذه السنة إلى انشغال جل أبنائها بأوضاعهم السياسية والاجتماعية التي تزداد سوءا يوما بعد آخر، وبحكومة طال وقت تشكيلها، وبصراعات بين أحزاب، يدّعي كل واحد منها امتلاك الحلول لبلاد تئنّ تحت ثقل أزماتها، وبخطب الرئيس الجديد "العصماء" التي يبذلون جهودا مضنية في فكّ رموزها ومعانيها ومقاصدها خصوصا بعد خطابه في محافظة سيدي بوزيد في السابع عشر من ديسمبر والذي تحدث فيه عن "مؤامرة تُدَبّرُ في الغرف المغلقة".

لكن قبل أن نتعرض إلى البعض من الجوانب السلبية التي تَسمُ أحوال اللغة العربية في تونس راهنا، يجدر بنا أن نعود إلى أطوار مفصلية مرت بها على مدى ما يناهز القرن من الزمن. ويمكن القول إن اللغة العربية في بلاد ابن خلدون، عرفت الانتعاشة والتجديد في العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي بفضل جهود أدباء وشعراء شبان كانوا قد تأثروا بالنهضة التي تشهدها اللغة العربية في المشرق العربي. كما تأثروا أيضا بموجات التجديد في الآداب الغربية.

وكان الشابي أبرز هؤلاء إذ كان أول من خلص الشعر من ركاكة وضحالة لغة عصور الانحطاط ليخرج به من دائرة المدح والهجاء، إلى الحياة في معانيها العميقة، وفي نبضاتها اليومية، وفي إيقاعاتها المنسجمة مع إيقاعات عصر مضطرب كان فيه التونسيون يعيشون التخلف والجهل في ظل استعمار بغيض كان يعمل على تدمير هويته الوطنية، ومَسْخه لغويا من خلال "الفرنسة" التي فتنت البعض حتى أنهم راحوا يروّجون أن اللغة العربية في طريقها إلى الانقراض تماما مثلما كان حال اللغة اللاتينية قبل قرون.

وإلى جانب الشابي، لعب أدباء لقبوا بـ"جماعة تحت السورّ" (وهو اسم مقهى في قلب المدينة العتيقة) دورا مهما في إحياء اللغة العربية لتكون عاكسة من خلال قصصهم، وأزجالهم، وأغانيهم لواقع التونسيين في تلك الفترة. وبشجاعة كبيرة تحدوا شيوخ جامع الزيتونة الذين كانوا يتعاملون مع اللغة العربية "حكرا" عليهم وحدهم فلا يجوز لغيرهم المس من "قداستها". وقد تمثل هذا التحدي في أن القصاصين الموهوبين؛ علي الدوعاجي ومحمد العريبي، وآخرين من جماعة "تحت السور"، تجرؤوا على تطعيم اللغة الفصحى باللهجة الدارجة خصوصا في الحوارات، وفي الأغاني ليجد الجمهور العريض في ذلك ما يُبهجه، ويعكس روحه التي ظلت شبه مُغيّبة حتى ذلك الحين.

أما محمود المسعدي الذي كان يُتْقِنُ الفرنسية، فقد ردّ على من كانوا يزعمون أن اللغة العربية مهددة بالانقراض من خلال أعمال أدبية أعادت الإشراقة إلى لغة الضاد مثلما كانت في عهود شهدت فيها ازدهارا وانتشارا واسعين بفضل رموزها الكبيرة في مجال الشعر والنثر. لذلك نحن نجد في لغة المسعدي في مجمل آثاره ما يُحيلنا إلى التوحيدي، وابن عربي، والجاحظ، والأصفهاني، وكتاب المقامات.

وفي الستينات من القرن الماضي، عادت النخب التونسية إلى مناقشة أوضاع اللغة العربية خصوصا بعد أن تم غلق جامع الزيتونة الذي قلّص من تأثير ومن هيمنة شيوخه فما عادوا يتحكمون في الأوضاع الدينية والفقهية واللغوية مثلما كان حالهم من قبل. وفي هذه الفترة، برز تيّاران. التيار الأول يرى أن لغة المسعدي هي المثال الأعلى للكتابة الأدبية. لذلك كان يرفض كل من لم يقلدها، أو يجاريها.

أما التيار الثاني فقد انتصر لجماعة "تحت السور"، ليبدع أعمالا هامة في مجال القصة والرواية والمسرح. وقد لاقت جل هذه الأعمال انتشارا واسعا لدى القراء التونسيين. مع ذلك ظلت أبواب الجامعة التونسية التي يتحكم فيها المناصرون للغة المسعدي، والمتمسكون بما يسمونه بـ"متانة اللغة الفصحى" مغلقة أمام هؤلاء حتى هذه الساعة.

لكن ماذا عن الوضع الذي تعيشه اللغة العربية في تونس راهنا؟

> الظاهرة التي يزداد خطرها يوما بعد آخر، هي ظاهرة الفرانكو – أراب التي هي اللهجة الدارجة مُطَعّمَة بمفردات فرنسية

شخصيًا أعتقد أنه وضع بائس للغاية. والظاهرة التي يزداد خطرها استفحالا يوما بعد آخر، هي ظاهرة الفرانكو – أراب التي هي اللهجة الدارجة مُطَعّمَة بكلمات ومفردات باللغة الفرنسية. وغالبا ما تكون هذه الكلمات وهذه المفردات مُشَوّهة للغة الفرنسية نفسها. وجميع الإذاعات، والقنوات التلفزيونية، تتنافس على استعمال الفرانكو – أراب في برامجها من دون حسيب ولا رقيب.

وهناك سياسيون من الأحزاب الجديدة يميلون هم أيضا إلى الفرانكو – أراب من دون أن يعوا بأن ذلك يضرّ بهم، ويجعلهم عاجزين عن التأثير في الجمهور الواسع خصوصا في الأرياف، وفي المناطق الداخلية. وقد اقتحم الفرانكو – أراب المسرح والسينما أيضا ليكون لغة هجينة فاقدة لروح وعمق اللغتين، أي العربية والفرنسية. وحدهم الإسلاميون والقوميون يحرصون على استعمال اللغة العربية في خطبهم، وتدخلاتهم، وكلامهم. لذلك هم يتمتعون بقاعدة شعبية واسعة ترى فيهم الممثلين الشرعيين لهويتهم الحقيقية. وربما لهذا السبب أيضا صَوّت قرابة الثلاثة ملايين تونسي لصالح قيس سعيد في الانتخابات الرئاسية الأخيرة لأنه يخاطبهم بلغة عربية مُفخّمة قد لا يفهمون مضمونها ومعانيها، لكنها تبدو لهم عاكسة لهويتهم الوطنية التي باتت مهددة بالتفكك والتمزق أكثر مما كانت عليه في فترة الهيمنة الاستعمارية المباشرة.

هناك من لا يقبل تجديد اللغة (لوحة للفنان نجا المهداوي)